# العقل بين سياق النص وأدلجة التفكير - أهل البيت (عليهم السلام) مثالا

الأستاذ الدكتور
عبد الحسن علي مهلهل
جامعة ذي قار - كلية الآداب

**المقدمة:**

ارتبط العقل على مر العصور منذ نشوئه بالفكر الإنساني عموما ، والفكر الديني على وجه الخصوص ،وظل الإنسان حائرا أو مترددا ، يفكر فيما حوله من الظواهر الكونية ، وهنا واجهته القضية الكبرى ، وهي قضية الوجود وما يتصل بها من الاعتقاد الديني الذي يقود حتما إلى حقيقة الخالق الوحيد الذي لا يشاركه أحد في ذلك الوجود ؛ وتباين موقف الإنسان على مر العصور أيضا من هذه القضية بين مهتد بعقله الى الحقيقة الكبرى وبين مضل متجاوزا عقله الى بدائل آخرى ارتضاها هو لنفسه لتحل محل الله تعالى؛ خالق كل شيء ؛ ومن هنا بدأ الصراع بين قيم الخير والشر ، وخاض الفلاسفة والمتكلمون والعلماء في ذلك الصراع ،وفي تلك المسالة ، ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ،وبرزت إشكالية ذلك الصراع أمام الإنسان نفسه وربما وقع هو نفسه ضحية لتلك الإشكالية ؛ وجاء الحسم من الله تعالى شأنه ليفصل بين بين المتصارعين ويضع الانسان في الوضع الطبيعي الذي أوكله تعالى له ؛ وذلك من خلال إرسال الرسل والأنبياء (عليهم السلام)إلى بني أدم ويشكل المعتقد الديني أهمية كبرى في التفكير الإنساني أينما وجد ويظل تفكيره بهذه القضية قائما بين أمرين : هما ، : العقل والنص ؛ وإذا كان المسلمون على وجه الأجمال متفقين على ضرورة تأسيس العقيدة على العقل إلا أنه أي العقل قد ( يتحول إلى تابع أعمى للنص يلتزم بظاهره أو متشابهاته من دون تأويل وتوجيه ومن دون التفات الى مصادمة هذه الظواهر لأحكام العقل لأن الرسل والانبياء (عليهم السلام) قد ألزموا الناس أولا بحجية العقل واثره في الاهتداء إلى الحقيقة المنشودة .

وعن أهمية العقل في هذا المضمار ما رواه الكليني في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) : (إن أول الآمور ومبدأها وقوتها وعمارتها لا ينتفع شيء إلا به( العقل ) الذي جعله الله زينة خلقه ونورا لهم ، فبه غرف العباد خالقهم ، وإنهم مخلوقون .

أما الاتجاه الثاني الذي أحكم سيطرته على التفكير الانساني هو الاتجاه النصوصي الذي تجاهل دور العقل فألغاه واستبدله بالنص الديني لإقامة العقيدة الدينية والمقصود هنا بالنص الديني هو : النص القرآني والسنة النبوية المطهرة باعتبارهما مصدرا من مصادر المعرفة الإسلامية عند الجميع يلزم قبولهما ..إن البحث في هذا المجال يحتم علي أمرين :الأول ،الاطلاع على أهمية العقل في الفكر العربي المعاصر من خلال ما قدمه الباحثون العرب المعاصرون من رؤى ، والثاني ، هو الرد على هذه الرؤى بما تبناه الإمام علي (عليه السلام ) من فكر عن أثر العقل في أدلجة الفكر الإسلامي في ضوء نظرته المتحررة من القيود الاخرى التي تمسك بها أغلب المفكرين أو الفلاسفة على مر الاجيال ، بوصفه إماما معصوما رأيه حجة علينا .

**محنة العقل في الفكر العربي المعاصر :**

لست هنا بصدد إعادة ما كتبه الباحثون العرب المعاصرون حول قضية العقل وأثره في تبني الثقافة العربية الاسلامية ؛ واثر كل ذلك في تقديم التراث العربي الاسلامي الى الاجيال اللاحقة وما أثارته تلك المباحث من استفزاز على المستوى الفكري العربي المعاصر في كثير من الأحيان إن الذي إن أنشا الحضارة ، وأقام الثقافة جدل الإنسان مع الواقع من جهة ،وحواره مع النص من جهة أخرى ،إن تفاعل الإنسان مع الواقع وجدله معه بكل ما ينتظم هذا الواقع من أبنية اقتصاديةواجتماعية وسياسية وثقافية هو الذي انشأ الحضارة ، (( وللقرآن في ثقافتنا دور حضاري لا يمكن تجاهله في تشكيل طبيعة هذه الحضارة وتحديد طبيعة علومها ، وإذا صح لنا أن بكثير من التبسيط أن نختزل الحضارة في بعد واحد من أبعادها لصح لنا أن نقول إن الحضارة المصرية القديمة هي حضارة (ما بعد الموت )، وأن الحضارة اليونانية هي حضارة (العقل )، أما الحضارة العربية فهي حضارة (النص )) [1] ،ومن هنا كان التأويل يمثل الوجه الآخر للنص في الحضارة العربية ،والأداة المهمة في انتاج المعرفة،ولا

أود هنا الذهاب الى ما يمثله النص في الحضارة الإسلامية في مراحلها الأولى التي تشكلت في عهد النبي العظيم محمد (صلى الله عليه وآله) أو في عهد الخلفاء الذين جاءوا من بعده حتى قيام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بالأمر، وللأسف الشديد لم تمهله الحروب التي شنها خصوم الدولة الجديدة من (الناكثين والمارقين والباغين) أن يأخذ الخطاب الرسمي الصحيح مساره الجديد الذي ظل مغيبا طيلة العهود الثلاثة التي سبقت حكومة الإمام (عليه السلام)، ولكن هذا لا يعني أبدا أن امير المؤمنين كان مغيبا - وإن كان الموقف الرسمي يتمنى ذلك - لان الحاجة أحيانا تقتضي الاستعانة به في حل كثير من المشكلات التي واجهت الخليفة الثاني على وجه الخصوص حتى قال قولته المشهورة : (لا أبقاني الله لمعضلة وأبو الحسن لها) . ولقد أشرنا قبل قليل أن المعتقد الديني قد توسط بين العقل والنص ،، وعلى الرغم من أن المسلمين قد اتفقوا ـ على وجه الإجمال ـ على ضرورة تأسيس العقيدة على العقل وذلك لأن ((في النقل والنصوص الدينية الكثير من الظواهر التي توجب الأخذ بظاهرها الالتزام بما هو معلوم بالضرورة العقلية والشرعية ،، إلا أنه كثيراما يغفل البعض عن هذا الأصل الأصيل فيتحول إلى تابع أعمى للنص يلتزم بظواهره ومتشابه من دون تأويل وتوجيه ومن دون التفات الى مصادمة هذه الظواهر لأحكام العقل القطعية التي لو لا لما قامت على الإنسان حجة في بداية الأمر ، لأن الأنسان يقبل الشريعة وينظر في دعوى مدعي الرسالة والنبوة بإلزام العقل وحجته ، وفي ذلك روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : أن أول الامور ومبدأها وقوتها وعمارتها التي لا ينتفع شيء إلا به ـ العقل ـ الذي جعله الله زينة لخلقه

ونورا لهم ،فبلعقل عرف العبا د خالقهم وأنهم مخنوقون وأنه المدبر لهم ، وانهم المدبرون ، وانه الباقي ،أنهم الفانون ،واستدلوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه ، من سمائه ،وأرضه وشمسه وقمره وليله ونهاره وبأن له ولهم خالقا ومدبرا لم يزل ولا يزول وعرفوا به الحسن من القبيح ،وأن الظلمة في الجهل ، وأن النور في العلم ،فهذا ما دل عليه العقل )) [٢] . وفي هذا يبدو جليا أهمية العقل في بيان حياة الإنسان على كل المستويات العقائدية والفكرية وما يتشظى عنها من مستويات أخرى؛ كما يبدو واضحا أيضا تنبه الفكر

الديني الأول ممثلا بالإمام الصادق (عليه السلام) الى أحدى أهم القضايا التي استوقفت المفكرين على مر العصور، كما يبدو لي أن الفكر الإمامي لم يكن منغلقا على نفسه فهو يتحدث عن الإنسان بأوسع المديات .. وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق أيضا تشير إلى أهمية الاتصال بين الله تعالى والبشر وضرورة دوام ذلك الإيصال ما دعت الحاجة إلى ذلك أو قل ما حصل ارتباك وانحراف في حياة الأنسان على المستويات كافة وأولها : التوحيد؛ لأن به يتمكن الإنسان من النفاذ إلى صالة الاستقرار ،والرواية طويلة مفادها حاجة الإنسان الى الرسل والانبياء يقول عليه السلام : (( .... ثبت أن له (لله تعالى ) سفراء في خلقه ' يعبرون عنه إلى خلقه وعباده ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم ، فثبت الآمرون الناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبرون عنه جل وعلا ، وهم الأنبياء عليهم السلام، وصفوته من خلقه ، حكماء مؤدبون بالحكمة ، مبعوثون بها ، غير مشاركين الناس ـ على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب ـ في شيء من أحوالهم مؤيدون من عند الحكيم العليم بالحكمة ، ثم ثبت ذلك في كل دهر وزمان مما أتت به الرسل والانبياء من الدلائل والبراهين ، لكي لا تخلو الأرض من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته )) [٣] ، ((وهذه الرواية وإنكانت نصا دينيا فمن الواضح أن الحجة فيها حجة عقلية محضة ، فالإمام (عليه السلام) يتحدث هنا بوصفه يكشف البرهان العقلي الدال على لزوم النبوة والبعثة ، وهو برهان يدركه كل العقلاء بعقولهم السليمة )) [٤].

والعقل لا يلغي ما سواه في إثبات المعارف كافة ، و لقد ذهب السيد الخميني (قدس سره) إلى أن أثبات المعارف كالتوحيد والمعاد ،والنبوة ، بل مطلق المعارف إلى ( النقل من دون العقل عند المحدثين ممن استوقفتهم هذه القضية ، لهو من غرائب الأمور التي يجب أن يستعاذ بالله منها [٥].

ويبدو لي ـ بهذا التصور ـ أن السيد الخميني (قدس سره) ، قد أدرك حجم الغربة التي وقع فيها المثقف الإسلامي المعاصر بسب استقباله للمؤثرات الخارجية الوافدة من الغرب بشكل مباشر أو غير مباشر ، فالمؤثر المباشر جاء نتيجة إغراء أدوات الحداثة للمشتغلين بحقول الفكر الإسلامي وذلك باستعمالها وإسقاطها عليه مما أوقعهم ذلك الأمر بالتناقض ، ولعل

أخطر قضية برزت أمام هؤلاء أو عندهم هي أنهم نظروا للدين نظرة ميتافيزيقية وأيدولوجية ذات حمولة أسطورية ، خارجة عن حدود العقل ، وقام التفسير عند هؤلاء للظواهر الكونية على النظرة المادية الواهية ،.. إن مثل هذا المؤثر قد فرض نفسه على مساحة واسعة من الفكر العربي المعاصر ، لكنه تعرض للاستلاب والتغريبعن الواقع التاريخي والاجتماعي الذي يتصف بوصفة اسلامية لا يمكن تجاهلها ، لذا بدت أفكاره غير منسجمة معه ،ويتجلى هذا التوجه باستثمار مظاهر الحداثة الغربية لا سيما التفكيكية منها ، وما جاء بعدها من مناهج آخري كالظاهراتية وفي هذا الاتجاه ذهب نصر حامد أبو زيد ، ومحمد جابر العابدي،وحسن حنفي ، ومحمد أركون ، وبرهان غليون وآخرون .[٦] ..

وتتميز وجهة نظر هؤلاء المفكرين بمحاولة نزع القداسة عن الفكر الاسلامي استجابة للمؤثر الغربي الحداثي ، لذا تتكر عندهم أن النبوة وقيم السماء لا تخضع للعقل وانها محمولة بحمولات اسطورية ، ولقد تجرأ بعضهم على الوحي أو النبوة وبالخصوص على شخصية الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله) ،فحاولوا ان يضعوه بجانب المفكرين والعلماء وهم بذلك ينون اخضاعه (صلى الله عليه وآله) إلى منطق الخطأ والصواب فلم يؤمنوا بعصمته (صلى الله عليه وآله) .. [٧] ، ومثل هذه التصورات الخاطئة ليست جديدة في التفكير الإسلامي فقد نقل بعض المفسرين عن عائشة ((أن يهوديا قد سحر النبي (صلى الله عليه وآله) ، فأثر به ذلك حتى يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله ،،،، )) أقول أن تلك تشبه هذه من محاولة التمسك بحبال واهية ،، ولقد كان الفكر الإمامي المعاصر متيقظا لرد مثل هذه المطاعن عن الفكر الاسلامي السليم متمثلا بفكر الرسول والائمة الاطهار (عليهم السلام) ،فلشيخ الطوسي (رحمه الله) رد هذه القصص وأستدل على ذلك بقوله تعالى : (( وقال الظالمون ان تتبعون إلا رجلا ...)) الفرقان/٩ ، أما العلامة الطباطبائي (رحمه الله) فقد ذهب في : (الميزان في تفسير القرآن)إلى أنه لا مانع من قبول الروايات التي تفيد بأن النبي (صلى الله عليه وآله) قد سحر مادام المقصود أنه أصيب بضرر السحرفي بدنه لافي عقله [٨] ،ويجب أن لا يختلف اثنان من المؤمنين على تنزيه النبي (صلى الله عليه وآله) عن كل ما يمسه ، لأنه أكمل الناس عقلا وأرجحهم حلما ...

إن السيد الطباطبائي في أطروحاته الفلسفية في تفسيره آنف الذكر ، والسيد محمد باقر الصد (قدس سره) في معارفه الحديثة ، وأفكاره التي تحمل فرادة المفكر ، والفيلسوف ،وعالم الاجتماع ،والمفسر ،ورجل الدين ،وغيرهما من المجددين قد اثبتوا وهن الفكر القادم من الغرب الذي يحاول ان يلغي الخصوصية الاسلامية ويتجاهل هويتها المعرفية بقصد أو بآخر ..وربما أثارتني المقارنة التي طرحها أحد الباحثين [٩] ، بين اثنين من رموز العقل العربي الحديث ، هما : الإمام الشهيد محمد باقر الصدر (قدس سره) والدكتور نصر حامد أبو زيد في قضية نظرة كل منهما إلى النص القرآني وخلاصة الأمر ، ان نصر حامد أبو زيد قد تحدث عن النص القرآني في كتابه : ( مفهوم النص ) [١٠] خارج حدود القداسة التي يتصف بها القرآن الكريم ، ففي قوله مثلا: ( أن القرآن الكريم نص لغوي ، بل كتاب العربية الأكبر وأثره الأدبي الخالد ،) وقوله في بيان منهج التحليل الواجب تطبيقه على القرآن الكريم : (... ويمكن اعتبار منهج التحليل اللغوي هو المنهج الإنساني الوحيد الممكن لفهم الرسالة وفهم الاسلام ) ، ووصف القرآن بأنه : ( تشكل في الواقع والثقافة في فترة تزيد على العشرين عاما ...) أما ظاهرة الوحي فقد تحدث عنها في الربط بينها وبين الثقافة العربية الجاهلية المرتبطة بالسحر والكهانة ...

وعلينا أن نفرق بين تناول نصر حامد أبو زيد للنص القرآني وبين تناول السيد الصدر ، إذ ان اختلاف الانتماء الفكري لكل منهما قد أدلج نمط التفكير عندهما ، فالسيد الصد (قدس سره) ينظر للنص القرآني على أنه نص مقدس ، وأنه كلام الله تعالى وإن (نزل بلسان عربي مبين ) فاللسان هنا يعني اللغة ولايعني الانتماء الشخصي ،، أما نصر حامد أبو زيد فإنه ينظر للنص بوصفه نصا أدبيا لا يختلف عن بقية النصوص الأخرى إلا بتفوقه العالي ... فالفرق واضحا بين تأثر القران الكريم بالظروف الموضوعية المحيطة به وبين فكرة مراعاته لتلك الظروف ، يقول : (( إننا ومنذ البداية لابد أن نفرق بين فكرة تأثر القرآن الكريم وانفعاله بالظروف الموضوعية من بيئة وغيرها بمعنى انطباعه بها ، وبين فكرة مراعاة القرآن لهذه الظروف بقصد تأثيره فيها وتطيرها لصالح الدعوة ... فإن الفكرة الأولى تعني بشرية القرآن ، بخلاف الفكرة الثانية التي تعني شيئا من ذلك ، لأن طبيعة الموقف القرآني الذي

يستهدف التغير، وطبيعة الأهداف والغايات التي يرمي القرآن الكريم إلى تحقيقها قد تفرض هذه المراعاة )) [١١] ،والسيد الصدر في ذلك لا يخرج عن دائرة الفكر الإمامين الذي عالج ــ كما مر بنا على لسان الإمام الصادق (عليه السلام) ــ أهمية العقل في ادراك الأشياء على مستوى تقبل النص ، فهو أي ( الصدر ) يؤكد مراعاة الخطاب القرآني الكريم بوصفه يرمي لهداية العقل الانساني أولا ،يقول (( فليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل ان يشجب كل الوضع الذي كان سائدا قبله، لأن الانسانية مهما تفسد وتنحرف عن طريق الفطرة فهي لا تفسد كلها )) [١٢] . إذن هي محنة العقل في تلقي النص في سياقه الذي جاء فيه ... ولكن أي نص هو الذي يحرك العقول ويستفزها ؟ النص الفريد الذي يمتلك صفتي القداسة والتفرد . وإذا كان النص مقدسا أليس فمن الواجب تجنب الخوض في غماره لقداسته ؟ ويأتي الجواب بالإيجاب ... فالذي فوض العقل الانساني ان يبحث في ذلك النص هو النص نفسه ،لما فيه صفة الإعجاز والتحدي للقوم الذين يحملون صفات النص اللغوية نفسه ...

إذن هو سؤال حول ماهية النص وكيفية التعاطي معه فالصراع الفكري ـ أنف الذكر ـ اهو الذي أثاره نص مثل القرآن الكريم ،هو ليس جديدا ، فقد تمتد جذوره إلى أيام طه حسين ورفاقه، وهو (( صراع بين موقفين من النص وبين تصورين له أو طريقتين في التعامل معه ' ، أي بين قراءتين : قراءة طبقا لآليات العقل الغيبي الغارق في الخرافة والأسطورة وهي قراءة القدماء والاسلاميين المعاصرين ، وقراءة طبقا لآليات العقل التاريخي الإنساني وهي قراءة المحدثين من علمانيينوتنويريين )) [١٣] . وواضح أن (نصر حامد ) قد تبنى الخيار الثاني .

**النص هو المدخل:**

يقول الدكتور علي حرب في كتابه : (نقد النص ) ١٤ : (( تقوم استراتيجية النص على جملة من الألاعيب وإجراءات يمارس الخطاب من خلالها آليات في الحجب والأقصاء أو في التبديل والنسخ . والنصوص سواء في ذلك وإن تفاوت نص عن آخر في القوة والشدة ،وهنا مكمن السر في النص ، أعني انه يخفي استراتيجية ولا يفضي بكل مدلولاته . ولهذا

فأنا أذهب إلى أن قوة كل النص هي في حجبه ومخاتلته لا في افصاحه وبيانه ، في اشتباهه والتباسه لا في أحكامه أو إحكامه ، في تباينه واختلافه لا في وحدته وتجانسه .. من هنا يقوم التعامل مع النص على كشف المحجوب ، أي على كشف الأوراق المستورة أو المستندات السرية . فما يحجبه القول ويشكل في الوقت نفسه شرط إمكانه أو بداهته المتحجبة ، هو الذي يجعل القراءة الكاشفة ممكنة ، وكلما ازداد الحجب ازداد إمكان الكشف وتنوعت احتمالات القراءة ))، من جهة اخرى تتماثل النصوص من حيث كونها تشكلات خطابية ، فتحليل الخطاب المتواري خلفها قد يكشف انها اي ( النصوص ) الى تباين هوياتها وانتماءاتها الفكرية تستخدم آليات الخداع أو الحجب من خلال تقنيات الخطاب نفسه كالمجاز مثلا ،وما يندرج تحته من آليات بلاغية آخرى وحتى النصوص الفلسفية التي تروم الأقناع والحجاج لا تخلو من ذلك التوجه ، وطبعا هذا الأمر لا يمكن أن يلغي تمايز الثقافات واختلافها وتباعد العصور التأريخية ، وبالمقابل يصعب وضع الحواجز بين الميادين التي ولدت في رحمها النصوص ، فالنصوص قد لا تكون كما نريد لها أن تكون ، بل لها مخاتلتها ، فهي عصية على التحديد والتأطير والتصنيف ، قد تنصهر في نص واحد لغات وخطابات لا عد لها ولا حصر ، وقد تتداخل فيه أزمنة وعصور وثقافات متباعدة ( ١٥ ) .

لقد اثار العقل العربي المعاصر جدلا واسعا مع بعضه قد يخلو في بعض الأحيان من صفة الحوار ؛فالجدل الذي أثاره مشروع : حسن حنفي في كتابه : ( من العقيدة إلى الثورة ) الصادر عام ١٩٨٨ ، ومحمد اركون في كتاباته الفكرية التي حاول فيها اعادت انتاج الخطاب الاسلامي ،و محمد عابد الجابري في كتابه الشهير : نقد العقل العربي ، بأجزائه الثلاثة ثم جلال صادق العظم في : كتابه ( دفاعا عن المادية والتاريخ ) وغير هؤلاء ، هو جدل يبحث في كينونة النصوص وموقف العقل منها ، والواقع يشير إلى أن هؤلاء ،لا سيما أركون والجابري قد نظرا إلى الفلسفة التي أنتجها العقل العربي بمنظار أرسطو ، أو بمنظار ديكارت ، أو من خلال عقلانية علمية صرفة ، فقد حكموا على النتاج الصوفي مثلا بأنه غير عقلاني ولم يتحرروا من الاحكام المسبقة ، وربما تأثروا بالفكر اليوناني او الغربي في ذلك ولو انهم تحرروا من ذلك لوجدوا اللا معقول معقولا ولتعرفوا

على ماهية العقل العربي فلا يجب ان نحاكم العقل العربي من خلال عقلانية الاخرين كاليونان او الغرب بل علينا أ ن ننظر الى التجربة الفكرية عندنا ومن خلالها نحاكم العقل العربي ونتعرف على ماهيته ، ..[١٦] وطبعا لا أريد أن احاكم هؤلاء وغيرهم ؛ فقد تعرضوا للمحاكمة الفكرية ما يكفي ويغني عن القول [١٧] .

**فكر أهل البيت ( ع ) مثالا**

لقد أجهد النقاد المعاصرون من أمثال محمد عابد الجابري ونصر حامد أبو زيد البحث في الفكر الإسلامي وتقديم فكرة تكاد تكون مشوهة عن القل العربي وطرق اشتغاله ولقد تصدت بعض الأقلام الزكية للدفاع عنه والوقوف بوجه ذلك التطرف الفكري الذي لم يفتأ أن يذكر الفكر الإمامي بالنقد أحيانا أو القصور أحيانا آخرى ،، ولما كان النقاش والحوار مع هؤلاء أساسه قضية العقل أثرها في التراث الفكري الإسلامي عموما والفكري الشيعي بشكل خاص من خلال تقديمهم بعض النصوص القرآنية في شأن العقل وحضوره في بناء اسس المعتقد الديني الامامي .. وليس هناك مثيل في الفرق الاسلامية الاخرى ما نجده في الفكر الامامي المعاصر الذي هو تجسيد حي لفكر ائمة اهل البيت عليهم السلام ، فقد طرح العلامة محمد بن يعقوب الكليني ( ت٣٢٩ هـ )في موسوعته الحديثية :. (الأصول في الكافي )وهي أشهر الموسوعات عند الإمامة طرح كتاب : ( العقلوالجهل ) ،الذي يتضمن اربعا وثلاثين حديثا في قيمة العقل واثره في تأسيس المعرفة الانسانية واستدل بأقوال ا لائمة (عليهم السلام) [١٨] . فالإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) قد أشار في أكثر من موضع إلى ذلك ، يقول في صفة الله تعالى : (( هو الله الحق المبين ، أحق وأبين ما ترى العيون ، لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبها . ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثلا ... )) [١٩] ، فالعقل أحدى وسائل التدبر والتفكر في كل شيء حتى في بيان صفة الخالق تعالى ، لكنه أي العقل إذا تمكن أن يدرك الاشياء بما أودعه الله تعالى فيه من أسرار فإنه عن إدراك صفات الخالق ربما يكون عاجزا ،، وقوله (عليه السلام) : (( ... فلسنا نعلم كنه عظمتك إلا أننا نعلم أنك : حي قيوم لا تأخذك سنة ولا نوم ، لم ينته إليك نظر ، ولم يدرك بصر ،أدركت الأبصار، وأحصيت الاعمال ، وأخذت بالنواصي والأقدام ، وما الذي نرى من خلقك ،ونعجب له

من قدرتك ، ونصفه من عظيم سلطانك ، وما تغيب عنا منه وانتهت عقولنا دونه وحالت سواتر الغيوب بيننا وبينه أعظم ...)) (٢٠)،

مرة لم ينته العقل على أهميته الى أدراك حقيقة ما تغيب من قدرة الله تعالى عن خلقه، وينقطع العقل فيظل مبهورا مغلوبا منقطع النفس أزاء قدرته تعالى ...فإذا للعقل الحق في تدبر صفات الخالق العظيم فحري به أن يتدبر ما دونه ... فقد قال (عليه السلام): (( فسبحان الذي بهر العقول عن وصف خلق جلاه للعيون...)) (٢١) . ويحرك الإمام (عليه السلام)مكامن العقول في التفكر بوحدانية الخالق وعظمته ،وأنه لا يضاهيه ، أو يشاركه في ذلك أحد ، وهذه مسألة شغلت فكر الامام (عليه السلام) لكثرة المخالفين في ذلك او المترددين ... كان ذلك لإثبات أن الصانع أو الخالق الواحد ومطلق المعارف الاخرى هي حق طلق للعقول كما أشار إلى ذلك الإمام الخميني (رحمه الله) ،ففي قوله عليه السلام ما يدل على ذلك :: (( وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشائها واختراعها ، وكيف لو اجتمع جميع حيواناتها من طيرها وبها ئمها، وما كان من مراحها وسائمها ، وأصناف أجناسها .. على إحداث بعوضة ،ما قدرت على إحداثها ، ولاعرفت كيف السبيل إلى إيجادها ، ولتحيرت عقولها في علم ذلك ،وتاهت وعجزت قواها وتناهت ...))(٢٢) .

وينبغي أن تكون العقول متيقضة لتلقف الحقائق والمعارف، وأخطر ما تمر به هو سباتها أي خمولها ، ويعد الإمام أمير المؤمنين ذلك خطرا كبيرا على الإنسان يستحق الاستعادة إذ يقول : ((نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل )) (٢٣) ، فخمول العقل يساوي في خطره قبح الوقوع بالخطأ الفاحش.... هذه المنظومة المعرفية التي أقام الإمام (عليه السلام ) عمادها على أساس عقلي نجدها لامعة في فكر الإئمة المعصومين(عليهم السلام)كالإمام الباقر ،والإمام الصادق ، والإمام الكاظم ، والإمام الرضا ،والإمام علي الهادي (عليهم السلام )..ففي أحاديث أهل البيت (عليهم السلام ) ما يصرح بأن العقل هو الحجة المطلقة والدائمة على الخلق حتى بعد مجيء الرسالات وبعث الأنبياء، يقول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله ) في شان العقل وأهميته: (( ما قسم الله شيئا للعباد أفضل من العقل ، فنوم العاقل أفضل سهر الجاهل ،

وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل ، ولا بعث الله نبيا ورسولا حتى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمته ... ))[٢٤] .

وقال (صلى الله عليه وآله) (( إذا بلغكم عن رجل حسن حال فأنظروا في حسن عقله ، فإنما يجازى به ))[٢٥].

وقال الإمام م الباقر (عليه السلام ): ( لما خلق الله العقل استنطقه ،ثم قال : له أقبل ، فأقبل،ثم ، قال له : أدبر ، فأدبر ، ثم قال : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أحب إلي منك ،))[٢٦] وللإمام موسى الكاظم (عليه السلام ) رسالة خاصة في بيان صفة العقل يطلق عليها ( الوصية الذهبية ) ، صرح فيها الأمام بفضل العقل على سائر الأشياء الأخرى ، أما الإمام علي الهادي (عليه السلام) فقد استخدم العقل ودوره في أثبات حجيته على خلق الله ، وأحقيته بالإمامة ، وفي المسألة التي جرت بين العالم الشيعي اللغوي ( ابن السكيت ـ٢٤٥ هـ، والإمام علي الهادي (عليه السلام) بتحريض من المتوكل العباسي بقصد احراج الإمام أمام الحضور ) : قال المتوكل لابن السكيت ، سل ابن الرضا بحضرتي مسألة عوصاء ... فسأله : لم بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا واليد البيضاء وآلة السحر ، وبعث (عليه السلام) بإبراء الأكمة والأبرص وأحياء الموتى ، وبعث محمدا (صلى الله عليه وآله) ،بالقرآن والسيف ، فأجابه أبو الحسن (عليه السلام) : بعث الله موسى بالعصا واليد البيضاء في زمان الغالب على أهله السحر ، أتاهم من عند الله بما قهر سحرهم وأثبت الحجة عليهم ، وبعث عيسى في زمان الغالب على أهله الطب فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم من ابراء الأكمة والأبرص وإحياء الموت بإذن الله فقهرهم وبهرهم وبعث محمدا (صلى الله عليه وآله ) بالقرآن والسيف في زمان الغالب على أهله السيف والشعر ، فأتاهم بالقرآن الزاهر ، والسيف القاهر ،ما بهر به شعرهم ، وبهر به سيفهم ، وأثبت الحجة عليهم ... فقال أبن السكيت : فما الحجة على الخلق الان؟ قال (عليه السلام ) : العقل ، يعرف به الصادق ، فيصدقه ،والكاذب على الله فيكذبه ))[٢٧] .

إن المنهج العقلي عند ائمة اهل البيت (عليهم السلام) في الاستدلال على وجود الخالق تعالى امتد الى قضايا اخرى في الفكر الإمامي مثل :إ ثبات الإمامة والعصمة ،ولقد أثار القرآن

الكريم بوصفه نصا أقول عنه : (( قرآنيا )) لا لغويا ولا أدبيا كما ذهب إلى ذلك الباحثون ؛ حتى أحافظ على قدسية النص القرآني ،حوارا نشيطا من الباحثين العرب المعاصرين ممن اشرنا اليهم في صدر البحث ، ولم يكن الفكر الامامي عاجزا في الرد على الكثير من شبهاتهم ، والقرآن بوصفه نصا دينيا أو خطابا دينيا وتشريعيا لابد ان يستخدم أنماطا من الخطاب الذي يستلزم تفسيرا وتأويلا .

ولا غرابة ان يواجه دارسو النص القرآني نمطين أو ثنائيتين في الفكر الديني ، وهي ثنائية تتألف من عالمين: أحدهما ، الوجود الخارجي بما يمتاز من محدودية ، وجماليات حسية ، وثانيهما : الوجود المطلق بما له من مواصفات جليلة مطلقة غير محسوسة ... وإذ تؤسس النصوص بهدي من رؤية العالم ،فلا جرم ان يطور الفكر الديني تصورات نقدية تضع النص في مسارين، : احدهما ينتمي للوجودالمباسر ويصبح دالا ينفتح عليه مباشرة ، اما ثانيهما ، فينتمي إلى عالم غير عالم الذات المتلقية ، إذ تكون للمرسل هوية لا يمتلكها مرسل النص غير المقدس من جهة ، كما سيغدو هذا النص دالا ينفتح على مدلول مطلق ومن ثم تحل مواصفات القداسة أو الجلال محل مواصفات الحسية او الالفة أو الجمال... ولعل ما يميز النص المقدس عن غيره ، هو أنه يكتنز عالمين ، هما : عالم الواقع ، وعالم ما فوق الواقع ،وتقدم الرؤية الدينية هذين العالمين على أنهما عالمان حقيقيان.. وما عالم الشخصية أو عالم الخطاب سوى انفتاح على ذلك العالم أو شاهد عليه ، أما النص غير المقدس ، فإنه يكتنز عالمين واقعين أحدهما العالم الواقعي الذي يمثل مرجعية الخطاب، وآخرهما تخيل ذلك الواقع وتحويله من صورته الخام إلى صورة جديدة، وحين تكون ثمة قراءة مؤولة تخرج بالنص القرآني من سياقات الحقيقة إلى سياقات المجاز الذييتوسع في استبصار ذلك النص ، فإنها ستنحصر في التوسع في فهم ذلك النص ، والحرص على الاستنباط على وفق أليات ثابتة تحد من جموح الذات المتلقية الحرة وتعيدها إلى ملامح النص الديني المتمثلة بـ : ( القداسة ،والحقيقة ،والخلود ) ... [٢٨] ويمكن القول أن اهل البيت (عليهم السلام) نظروا إلى النص القرآني نظرة تحمل قداسة وفرادة في آن واحد بوصفهم المتلقي الذي يحمل فرادة في فهم ذلك الخطاب المقدس... وبذلك قدموا خطابا متكاملا أسس للبحث على مستوى النص القرآني ، كان ذلك الخطاب امتدادا شرعيا لخطاب

الوحي والنبوة ، وصار التواصل بين الخطابين ( خطاب الوحي والنبوة ) وخطابهم متكاملا ،وهو خطاب يؤسس لطبيعة العلاقة ما بين النبوة والوحي من جهة والعقل من جهة ثانية ... على عكس ما ذهب أليه المحدثون ومن قبلهم القدامى في محاولة لفك عرى التواشيح ما بين الاثنين كما فعل ( الجابر ي ونصر حامد أبو زيد وأمثالهما ) فأوقع هؤلاء العقل وما يدرس من خطاب بين محنة النص وسياقه وبين تفكير مؤدلج سلفا أو محكوم برؤى الأخرين ... واذا كان النص القرآني محكوما في نزوله بالوحي ، فإن الوحي يسهم في تنشيط حركة العقل وتفعيلها ولايحجبه عن التفكير أو التدبر، ويمارس مهمته في استثارة العقول والتواصل معها من خلال الوصول عن الحقيقة التي يشتركان معا في البحث عنها .. وفي قول أمير المؤمنين (عليه السلام) لدليل أخر على إيجابية العلاقة بين العقل ومعطيات النص القرآني ، يقول : ((فبعث الله تعالى فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءهليستأدوهم ميثاق فطرته ، ويذكروهم منسي نعمته ،ويحتجوا عليهم بالتبليغ ، ويثيروا لهم دفائن العقول ... )) [٢٩] ،ومما له دلالته المهمة في هذا الباب أن أهل البيت (عليهم السلام) لم يكونوا يرون أن للقرآن تفسيرا وتأويلا متجددين في كل عصر وزمان ( فحسب ) ، بل كانوا يرون أن له آفاقا متعددة في الزمن الواحد ، وأن كل إنسان يعي من هذه الآفاق ما يناسب سعة فكره ؛ فقد روي أن قال عن الإمام الصاق (عليه السلام) : (( سألت أبا جعفر (عليه السلام) ،: عن شيء من تفسير القرآن ، فأجابني ، ثم سألت ثانية فأجابني بجواب آخر ، فقلت : جعلت فداك ، كنت قد أجبت قبل اليوم بغير هذا ،، فقال : ياجابر ،إن للقرآن بطنا ،وظهرا ، وللظهر ظهرا ،وليس شيء أبعد من عقول الرجا من تفسير القرآن، إن الآية لتكون أولها في شيء ، وآخرها في شيء ، وهو كلام متصل ينصرف على وجوه )) [٣٠].

## هوامش البحث ومراجعه

١ـ مفهوم النص ، د ،نصر حامد أبو زيد، ص٩ ،ط٤ ،بيروت ، ١٩٩٤ ..

٢ـ الأصول من الكافي ،الكليني ،ج١ /٢٩ ، ط٣ ،دار الكتب الاسلامية ، طهران،١٣٨٨ هـ ،

٣ـ م ،ن / ١٦٨ ،

٤ـ دراسات نقدية في الفكر العربي المعاصر ، كامل الهاشمي ،مؤسسة أم القرى للنشر ، ص ٢٠ ، ط١ ، ١٤١٦ هـ ،

٥ـ ينظر :الآداب المعنوية للصلاة ، روح الله الخميني ،ط١ ، دمشق ، ١٩٨٤ ، ص : ٢٠ ،

( ٦ و٧ ) ـ ينظر : مؤثرات فكرية في اشتغالات نصر حامد أبو زيد ، ( بحث ) ،حسن الكعبي ،مجلة المنهج ،ع / ١٤ـ١٥ / ص : ٢٢ - ٢٣ ، السنة ١٤٢٢ هـ ٠

٨ ـ ينظر : تفصيل هذه الروايات والردود عليها في ( دراسات نقدية معاصرة ٠٠٠٠٠ ) كامل الهاشمي ، مصدر سابق ، ص :٣٥ وما بعدها ٠٠

٩ ـ ينظر : تفاصيل ذلك في : ( مقارنة بين منهج نصر حامد أبو زيد والشهيد الصدر في دراسة القران الكريم، بحث ) ،علي حسن فرج ، مجلة المنهج ،( مصدر سابق ) ،ص ٤٢ ـ ٥٠ ٠

١٠ ـ ينظر : مفهوم النص ( مصدر سابق ): ٩ ، ٢٤ ، ٣٤ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ١١٧ ،١٢٠ ،١٣٤ ٠

١١ ـ المدرسة القرآنية ، محمد باقر الصدر ،مركز الأبحاث والدراسات التخصيصية ،للشهيد الصدر ،ط١ ، ١٤٢١ هـ ، ص : ٢٥٦ ٠

١٢ ـ م ٠ ن / ص : ٣١٠ ٠

١٣ ـ الخطاب الديني ، رؤية نقدية ، د ٠ نصر جامد أبو زيد ، دار المنتخب ،ص : ٨ ٠

١٤ ـ نقد النص ، علي حرب ، المركز الثقافي العربي ، ط٤ ، الرباط ،٢٠٠٥ ، ص : ٢٩

١٥ ـ الممنوع والممتنع ،د٠ علي حرب ، المركز الثقافي العربي ، الرباط ط٥ ، ٢٠٠٨ ، ص :٧٥ ١٦ ـنقد النص ( مصدر سابق ) : ص :٩٩

١٧ ـ ينظر تفاصيل ذلك في كتابات علي حرب :نقد النص ، نقد الحقيقة ، الممنوع والممتنع ، و كامل الهاشمي في : دراسات نقدية في الفكر العربي المعاصر٠

١٨ ـ ينظر : ( دراسات نقدية في الفكر العربي٠٠٠٠ ) / مصدر سابق : ص ٨٠ ومابعدها ٠

١٩ ـ نهج البلاغة ، امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، تعليق صفاء خلوصي ،دار الهجرة ،١٣٢٧ هـ ، ط٣ / ص :٢٦٥ ٠

٢٠ ـ م ٠ ن / ص٢٧٥ ٠

٢١ ـ م ٠ن / ٢٩٣ ٠٠

٢٢ ـ م ٠ ن /٣٤١ ٠

٢٣ ـ م ٠ن /٤٣٩ ٠

٢٤ ـ الأصول من الكافي ( مصدر سابق ) : ج١ / ١٢ - ١٣

٢٥ ـ م ٠ ن : ج١ / ١٢ ٠٠

٢٦ ـ م ٠ ن : ج١ / ١٠ ٠٠

٢٧ ـ م ٠ ن : ج١ / ٢٤ ـ ٢٥

٢٨ ـ التأويل وقراءة النص ، د ٠ سرحان جفات ،ط ١ ، دار الينابيع ، ٢٠١٠ ،١١١ ـ ١١٢

٢٩ ـ الأصول من الكافي ، ج١ / ٢٩ ٠

٣٠ ـ دراسات نقدية في الفكر العربي المعاصر( مصدر سابق) ، ص :١٢٤ ٠٠